جريدة ثمرات الفنون- فن الخبر في ظل الرقابة

أحمد رباح*

الملخص

كانت صحيفة ثمرات الفنون التي صدرت عام ١٨٧٥، سابقة لعصرها، على الرغم من معاصرتها لعهد دمره الاستبداد. لقد ابتدعت الصحيفة ألف طريقة وطريقة لتوصل الى الناس "الكلمة" بشتى الوسائل على الرغم من هذا التباعد الزمني بين الحدث والاخبار عنه. إذ لا يمكن إنكار الدور الفاعل الذي أدّته الثمرات ومثيلاتها في نقل الأحداث وتوثيقها، وتتبع تفاصيلها. إذ كانت هذه الحقبة من الكتابة الصحفية، الحقبة الذهبية التي ما لبثت أن اضمحلت تحت وطأة توجيهات السلطان عبد الحميد، مما دفعها الى الاحتجاب والتوقف عن الصدور، لكثرة الضغوطات لاسيما بعد نمو حركة التتريك، والقهر الذي مارسته بحق الأصوات المعارضة ولاسيما الصحف. ويبدو أن روحية الحرية، ومحاولة تحصيل حق الكلمة بالعبور الى فضاء الناس، كان الهاجس الذي دفع هذه الجريدة إلى الاستمرار. فقد ناضلت ثمرات الفنون لأكثر من ثلاثة عقود، في ظل جو من الرقابة التفصيلية والاعتباطية أحيانًا والتي كان يمارسها المكتوبجي ولا سيما في عهد السلطان عبد الحميد. ونقلت العديد من الأخبار والأحداث بجرأة مثل ثورة الهرسك وتتبع أخبار الهواء الأصفر، قبل احتجاب الجريدة عام ١٩٠٨. لقد رسمت ثمرة الفنون صورة تاريخية لرغبة النخبة بنقل الكلمة، والتمسك بالحرية، ولو في أحلك الظروف، وتحت ضغط الترهيب والتنكيل.

الكلمات المفاتيح: الصحافة، ثمرات الفنون، عبد الحميد الثاني، المكتوبجي

* عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الجامعة اللبنانية ahmed-rabah@ul.edu.lb

مقدمة

في العصر الحديث، انتشرت الصحف ككلمة مقروءة بدل تناقل الأخبار شفويًا، مؤثرةً في الوعي الجماعي عبر الأحداث والأخبار، فكانت مدخلًا للتثاقف والتغيير بين الأمم. من هنا قال "فولتير" الكاتب الفرنسي الشهير: "الصحافة هي آلة يستحيل كسرها، وستعمل على هدم العالم القديم، حتى يتسنى لها أن تنشئ عالمًا جديدًا" (دي طرازي، ١٩١٣، ١، ص ١٠). وتعتبر الصحافة لسان حال المجتمع، والوسيط في نقل الوعي بالذات والعالم المحيط الى أكبر قدر ممكن من الأفراد. وهي تتحرى الحقيقة، وتبحث عن التفاصيل، وتحاول إيصال الخبر، بأكبر قدر ممكن من الدقة الى القراء. وإذا تحرى محررو الصحيفة الحقيقة دون شوائب، وعرضوها دون مواربة، أعطوا صحيفتهم وزنًا وحولوها جيشًا قادرًا على الانتصار في كل المعارك. يقول نابليون بونابرت: "إنني أوجس خوفًا من ثلاث جرائد أكثر من خشيتي لمائة ألف حربة".

هذه النظرة الموضوعية، لا تعني أنّ كل الصحف، وانطلاقًا من هذه الرسالة الثقافية والفكرية، تسعى دائمًا إلى العمل بموجب هذه المبادئ، فكثيرًا ما تكون عرضة للضغوط، أو عرضة للتأثير بموجب الإيديولوجيات والسياسة، فيقصر خبرها عن الوصول الى غاياته، وتنحاز أحيانًا كثيرة الى المسكوت عنه، تجنبًا لصدام مع السلطة، أو رغبة بإخفاء حقيقة لضرورات كبرى وغايات خفية. وتغيب الحقيقة في مقالاتها ويداخلها الغموض والضبابية، ويعتريها المدح والتنميق اللغوي، فتأخذ القارئ بعيدًا لتحرف مسار وعيه عن اهتماماته الحياتية، فتفقد الصحيفة قيمتها، وتغيب من بين سطورها الوقائع. لذلك، يعدّ التعاطي مع الصحف دقيقًا من منظور البحث التاريخي، وينبغي للمتوغل ما بين السطور، استقراء الخبر وتمييزه عن التحليل، واستمزاج التركيبة العامة للمقالات الواردة على الصفحات الصفر، لتتبع مسارها، وتبيان الغث من السمين، ومقاربة الحقيقة المرجوة. وهذه الحقيقة تحتاج الى كثير من الدراية والوعي لنقلها الى الصياغة التاريخية وتثقيلها. من هنا، يمكن القول إن الباحث العامل على الصحف والمجلات القديمة، كمن يعمل على تحقيق مخطوط، بكل ما يحتاجه هذا التحقيق من مهارات التقصي والتأكد والتثبت من محتوى تاريخي ما.

لقد كانت الصحافة العربية عند نشوئها في العصر العثماني، متفاوتة من حيث شكلها ومضمونها، ومتباينة في عرض الخبر والتحليل السياسي، ومتنوعة من حيث اهتماماتها في ظل القوننة العثمانية التي طالت هذا القطاع تباعًا منذ عام ١٨٦٤. لذلك، من المهم تاريخيًّا العودة إلى بعض هذه الصحف، واستطلاع مهاراتها في نقل الحدث الآني حينها، والذي غدا تاريخيًّا لنا الآن، ومتابعة كيفية صمودها في ظل الضغوط التي تعرضت لها، في زمنٍ لم يكن من السهل فيه كتابة الكلمة كما هي، ونشرها بحرية كاملة على الناس من دون العبور بمقص المكتوبجي. ونعود في هذا الإطار الى جريدة "ثمرات الفنون" التي كانت زاخرة بالأخبار والتحليلات السياسية، بعيدًا من الفن وغيره، وإن كانت مطعمةً بنص أدبي هنا، وبخبر ثقافي هناك.

١– صدور ثمرات الفنون في ظل العهد العثماني

ترافق عهد التنظيمات العثماني منذ عام ١٨٣٩ مع مواكبة للتطورات الأوروبية في مجالات حياتية متعددة، وكان بديهيًا أن تكون الصحافة ونقل الأخبار ورقيًا بين الناس من ضمن المسائل التي رغب السلطان محمود الثاني في نقل تجربتها الى السلطنة العثمانية. ويبدو أن هذه التجربة دخلت بخجل إلى السياق التاريخي العثماني، وبفارق زمني مع أوروبا تجاوز ثلاثة قرون. ففي ايطاليا، صدرت جريدة "غزته" عام ١٥٦٦. وفي بريطانيا، ظهرت أول صحيفة إنجليزية يومية، عام ١٧٠٢، وأطلق عليها صاحبها اسم "الدايلي كورانت". وفي بوسطن ظهرت "بوسطن نيولستر" عام ١٧٠٤ (دي طرازي، ١٩١٣، ١، ص ٣٢). أمَّا في فرنسا فقد ظهرت الصحيفة اليومية الأولى، عام ١٧٧٧، باسم "جورنال دي باريس".

وفي السلطنة، ظهرت أول صحيفة باللغة الفرنسية "بريد أزمير" عام ١٨٢٥. ثم تلتها في عهد السلطان محمود الثاني(١٧٨٥–١٨٣٩)، وهي صحيفة "تقويمي وقائع"، حيث صدر عددها الأول في ١ تشرين الثاني

١٨٣١ . أما أول صحيفة عربية في الآستانة، فهي "مرآة الأحوال"، أصدرها عام ١٨٥٥ رزق الله حسون وهو الأرمني، بعد "الوقائع المصرية" الرسمية الصادرة في العام ١٨٢٨. وتعد صحيفته أول صحيفة عربية غير رسمية، على الاطلاق، وعطلها المكتوبجي بعد سنة ونصف، ثم استأنف اصدارها في لندن عام ١٨٧٦.

وأصدر اللبناني إسكندر شلهوب في القاهرة عام ١٨٥٧ صحيفة "السلطنة"، بإيعاز من السلطان العثماني. ثم تلتها "حديقة الأخبار" عام ١٨٥٨ التي أصدرها خليل الخوري (لبناني) في بيروت. وعام ١٨٥٨، أصدر رشيد الدحداح اللبناني في باريس جريدة: "برجيس باريس وأنيس الجليس"، لتصدر بعد عامين (١٨٦٠) أعظم الصحف العربية في زمنها: "الجوائب العربية"، لكبير مفكّري العرب في القرن التاسع عشر أحمد فارس الشدياق. وكانت صحيفته الأولى في انتشارها، والأولى أيضًا في شرح أحداث السياسة العالمية(دي طرازي، ١٩١٣، ١، ص ٤٧)، واستمرت في الصدور قرابة ربع قرن متواصلة من دون انقطاع، وهي إلى جانب "حديقة الأخبار" في بيروت، و"الوقائع المصرية" في القاهرة من أهم صحف ذلك الزمان!

وأسهم المفكّر العربي الشهير بطرس البستاني، منفردًا ومشتركًا مع نجله سليم، في إصدار أربع صحف شهيرة هي :"نفير سورية " عام ١٨٦٠، والثانية: "الجنان" عام ١٨٧٠، والثالثة: "الجنة" (١٨٧٠) وهي أسبوعية سياسة تجارية أدبية ، والرابعة: "الجنينة"(١٨٧١)[٢] السياسية والتجارية لصاحبها سليم بطرس البستاني .

والواضح تاريخيًا، أنه في عهد السلطان عبد العزيز الأول (١٨٣٠–١٨٧٦)، منذ توليه سدّة السلطنة عام ١٨٦١، كانت الصحافة الورقية قد بدأت بالاتّساع في ميادين الدولة، حيث كانت جميع المطبوعات تخضع لنظارة أو وزارة المعارف أو الداخلية في إسطنبول التي كانت تصدر أوامرها باسم الباب العالي حسب قانون عام ١٨٦٤ والذي يحدد الشروط المطلوبة للحصول على إذن بإصدار مطبوعة، ومن ضمن هذه الشروط:

---

١ اعتبر فيليب دي طرازي أن إصدار هذه الجريدة تمّ عام ١٨٣٢، ولكن الواقع التاريخي يشير إلى أن عددها الأول صدر أواخر عام ١٨٣١.

٢ توقّفت عام ١٨٨٦م بسبب اشتداد الرقابة على الصحافة العربية في لبنان وسوريا، وهجرة معظم الصحف والصحافيين العرب إلى مصر تحت حماية والي مصر الثائر على سلطان الأستانة.

٣ هو أول صحافي عربي حاول إصدار جريدته يوميًا، وعاشت أربع سنوات ونيفًا.

١– كل شخص باستطاعته أن يطلب إذنًا بذلك، إنما عليه التقدم من الوالي، فيحيله هذا الأخير الى وزير التربية. أما إذا كان أجنبيًّا، فيجب التقدم بالطلب إلى وزارة الخارجية.

٢– على طالب الرخصة أن يكون سنُّهُ ٣٠ سنة على الأقل، وأن يكون سجله نظيفًا.

٣– طلب الرخصة يجب أن يحتوي على اسم النشرة، مكان الطبع، تاريخ الصدور. كما يتضمن تصريحًا يتعهد فيه طالب الرخص بإصدار نسخة موقعة عن كل عدد الى الوالي. وقد لحظ القانون كذلك تشكيل مكتب خاص مكلّف بمراقبة التطبيق.

والواقع أنه يمكن تعداد مئات الصحف العربية التي صدرت في العصر العثماني ولكنها بفعل الرقابة في السلطنة، لم تعمِّر طويلًا، أو هاجر من أصدرها باتجاه مصر أو أوروبا. كانت كلّها باستثناء صحافة مصر تحت بطش الوالي العثماني، والموظّف المُختص برقابة كل ما يُنشر، والذي يُدعى بـ"المكتوبجي" ومن صلاحياته ضرب الصحافي العربي الذي يمسّ بهيبة "الدولة العليّة" فلقة، ببيته! وهو ما حصل مع صحافيين لبنانيين عديدين منهم المرحوم سليم سركيس ، ما اضطر أكثر من ست عشْرة صحيفة لبنانية ومحرّريها للهجرة الجماعية إلى مصر. ففي عقد واحد، صدرت في مصر حوالى مئة جريدة. ولعل ما كتبه سليم سركيس يعبر، بشكل واضح، عن مدى تأثر الصحفيين والمفكرين بالمدرسة الغربية في حرية الكلمة، ورغبتهم في ترجمة هذه الرغبة في جوانب السلطنة، ولكنهم لم يوفقوا حينها.

ومما كتبه في مقدمة كتابه، اعتبار مجازيًّا بعض محطات حياته نكبات، أودت به الى طريق الصحافة: "... والنكبة الثالثة أنني تعلمت اللغة الانكليزية بنوع خاص، فأصبحت لا أقوى على احتمال الخمول، وأنا أقرأ جرائد أوروبا ومؤلفاتها وأغذي عقلي بمبادئ التقدم والحرية. وهكذا تولدت فيّ الأميال الى نصرة الحق والرغبة في مقاومة الظلم، ولو كان في ذلك هدر دمي" (سركيس، ١٨٩٦، المقدّمة). ويورد سليم سركيس عرضًا تاريخيًا حول كيفية نشوء الرقابة وظهور دور المكتوبجي في مقدمة الكتاب المذكور، فيشير الى أن الصحف

[٤] صاحب جريدة المشير، أصدر كتابه غرائب المكتوبجي في مصر عام ١٨٩٦.

كانت تبدي أفكارها بحرية تامة متجنبةً كل ما يكدر الحكومة، حتى عام ١٨٧٧، حين عُين خليل أفندي الخوري، صاحب جريدة الأخبار مديرًا للمطبوعات في سوريا الذي كان يرسل تذكرةً أو إخطارًا في حال اعتبر ما تنشره الجريدة غير ملائم يقول فيه:" الى صاحب امتياز الجريدة الفلانية، من حيث أن جريدتكم قد نشرت في عدد كذا مقالة مخالفة للرضى العالي، فقد أوجبت (تخديش الأذهان) فاقتضى اخباركم أنكم إذا عدتم الى مثل ذلك، تجري بحقكم المعاملات القانونية" (سركيس، ١٨٩٦، ص ١١).

وعام ١٨٨٥، عين رائف باشا، وزير النافعة واليًا على بيروت، فحررت لسان الحال مقالًا للاحتفاء به. ولكن السلطنة العثمانية ألغت تعيينه، وعينت رؤوف باشا متصرف القدس واليًا. وعند وصوله، كانت مقالة لسان الحال على حالها، وأقيمت عليها دعوة، ثم عُطلت لستة أشهر. فقررت الدولة العثمانية أن لا تصدر جريدة في بيروت قبل تحويل مسودتها الى ميشال أفندي للموافقة عليها. ثم ضجر ميشال أفندي، فحول المسودات الى جمال بك التركي الذي لا يتقن العربية، ثم وصلت عبد الله أفندي الذي عاصره سليم سركيس وأورد عجائبه الرقابية في كتابه "غرائب المكتوبجي". وعلى الرغم من أن هذه الصحف كانت تتجنب مواجهات السلطة العليا، إلا أنها كانت عرضة للتعطيل والتعليق لأتفه الأسباب. ومع استصدار العثمانيين القوانين المنظمة، كانت المفارقة في التطبيق حيث كانت الرقابة ضارية، لتتحول الى إجراءات اعتباطية وبخاصة سنة ١٨٦٧، إذ تم توقيف الكثير من النشرات وملاحقة الناشرين. فازدادت القيود المفروضة على الصحافة منذ عام ١٨٦٤، وازدادت حدّتها ولا سيما في زمن السلطان عبد الحميد.

وصدر أول قانون للصحافة في العهد العثماني باسم "نظام المطابع والمطبوعات" في الخامس من شعبان ١٢٨١هـ/١٨٦٤م والذي تضمن خمسًا وثلاثين مادّة، واعتبر دستورًا للصحافة يبدأ العمل به اعتبارًا من الأول من كانون الثاني ١٨٦٥ في ولايات الدولة العثمانية كافة، وطالبت المادة الأولى بضرورة الحصول على إجازة من الحكومة لإصدار الجريدة، وأن تكون الإجازة من نظارة المعارف للمواطنين العثمانيين، في حين يحصل الأجانب على الموافقة من نظارة الخارجية، كما نصت المادة الثانية من النظام، أما المادة الرابعة

فطالبت أصحاب الصحف في داخل الدولة العثمانية وخارجها أن يرسلوا نسخة إلى "مدير المطبوعات" في اسطنبول، والى الوالي في الولايات، وفي آخر الجريدة اسم صاحبها أو محرّرها. ومنعت المادة التاسعة "جميع الجورنالات الأجنبية التي فيها قدح في الدولة العليّة وتعرض لأمورها يجب منع دخولها إلى الممالك العثمانية". وتضمنت المواد من العاشرة إلى الرابعة والثلاثين أنواع الغرامات وعقوبة السجن، وعقوبات أخرى لكل من يخالف قانون المطبوعات أو تجاوز "مقام مولانا السلطان" وأعضاء الحكومة العثمانية والولاة وموظفي الدولة أو "هتك ناموس شخص" و"طبع ذمًا في سفراء الدول الأجنبية وكافة موظفي السفارات". ونصت المادة الأخيرة على أن "هذه القوانين تعد دستورًا للعمل ابتداءً من أول (كانون الثاني) سنة ١٨٦٥" (الجبوري والجبوري، ٢٠١٥، ٣/٢٣).

وصدرت في السنة ١٨٧٧ تعليمات تطالب أصحاب الصحف وتؤكد عليهم وجوب "تنوير الشعب عن صحة جلالة مولانا الملك الغالية، ثم البحث عن المحصولات الزراعية وعن تقدم التجارة والصناعة في المملكة". وشدّدت التعليمات على الصحف كلّها الالتزام بالتعليمات الصادرة والالتزام بتنفيذها، ومن تلك البنود "لا يجوز نشر اسم أعداء جلالة السلطان ولا الإشارة إليهم"، وكذلك لا يجوز نشر أي مقال أو خبر قبل أخذ موافقة نظارة المعارف المسؤولة عن المطبوعات هذا من جهة، ومن جهة أخرى، كان على مسؤولي الصحف الالتزام بنشر المقالات والأخبار التي ترسلها الحكومة للصحيفة، ولا يحق لرؤساء تحرير الصحف أن يحيدوا عن الصيغة التي وردت في تلك المقالات قيد أنملة. وما زاد في الحدّ من انتشار الصحف نظام الضريبة المفروض عليها والمعروف باسم "الطمغة"، وهي أن يدفع عن كل عدد من أعداد الصحيفة الصادرة "بارتان"، ولم ترفع هذه الضريبة إلا سنة ١٩٠١. وقد جعل السلطان من نفسه ذروة الهرم في مراقبة المطبوعات" (الجبوري والجبوري، ٢٠١٥، ٣/٢٣).

وكان محظورًا على الصحافي نشر أبحاث مطوّلة مهما كان نوعها، بحيث لا يتسنى للجريدة نشرها مرة واحدة. كما لم يكن من الجائز استعمال كلمة يتبع أو غيرها من التعابير التي تدلّ على أن للبحث صلة. ولما كان ترك الفراغ ووضع ثلاث نقاط متتابعة في المقال على هذا النحو... يسبب التشويش، ويترك المجال لافتراضات لا طائل تحتها، فلم يكن يُسمح بذلك في المقال مطلقًا[٥].

في هذه الأجواء، أصدرت جمعية الفنون جريدة "ثمرات الفنون" التي أنشئت سنة ١٨٧٥، واختير عبد القادر القباني عضو الجمعية مديرًا لها، بعد نيلها الترخيص من نظارة المعارف (ثمرات الفنون، ١٨٧٥، ١، ص ١). فكانت بدايةً ناطقة باسم جمعية الفنون التي رعت اصدارها، الى أن حُلّت هذه الجمعية وآلت ملكيتها ورئاسة تحريرها تباعًا الى صاحب الامتياز عبد القادر القباني . وكانت تعدّ، في الوقت نفسه، صحيفة الطائفة الاسلامية في بيروت مقابل جريدة البشير الكاثوليكية (الرفاعي، ٢٠٠٦، ١، ص ٩٤).

تولى الشيخ قباني إدارة الجريدة شخصيًا، من رئاسة التحرير والإدارة المالية والمراسلات الخارجية، والإشراف على عملية التصحيح والتدقيق والطبع. ولكن بعد تعيينه رئيسًا لبلدية بيروت عام ١٨٩٨، عهد بكل هذه المسؤوليات الى الشيخ أحمد حسن طبارة.

والشيخ أحمد طبارة شخصية صحفية وأدبية مرموقة من أعلام ذلك العصر. واستمر سبعة عشر عامًا محررًا لجريدة ثمرات الفنون، ثم أسس صحيفته الخاصة "الإتحاد العثماني" في العام ١٩٠٨ ثم "الإئتلاف

---

[٥] كما ورد في دراسة معنونة "تاريخ الصحافة" منشورة على موقع وزارة الاعلام: www.ministryinfo.gov.lb

[٦] عبد القادر أفندي القباني هو رئيس بلدية بيروت الأسبق، صاحب جريدة ثمرات الفنون البيروتية، أسسها سنة ١٨٨٥م، ولد في زقاق البلاط ببيروت في منتصف القرن التاسع عشر، برز اجتماعيًا وسياسيًا بعد أن أصدر جريدة ثمرات الفنون، وهي جريدة بيروتية نشأت بإيعاز ودعم من جمعية الفنون الإسلامية، التي انحلت لاحقًا وأصبحت الجريدة المذكورة ملكًا امتيازا له، واستمرت بالصدور لمدة خمس وثلاثين عامًا، وكان للقباني قد تجلّى أكثر بعد إسهامه في تأسيس جمعية المقاصد الخيرية الاجتماعية، حيث كان منزله مقرًا لانطلاقتها عام ١٨٧٧. كذلك أسس مع عمر باشا المحمد ومحمد رشيد رضا جمعية في طرابلس تعني بتعليم الفقراء. وبعد انفصال سنجق بيروت عن ولايات الشام، عين عبد القادر عضوًا في محكمتها الاستئنافية بالإضافة إلى انتخابه رئيسًا لمجلسها البلدي البيروتي، ورئيسا لهيئة الموقوفات حتى سنة ١٩٠٩.

العثماني" فـ"الإصلاح" عام ١٩١٤، الى أن قضى شنقًا، ثمنًا للموقف والكلمة، مع شهداء الصحافة على يد جمال باشا الجزار عام ١٩١٦.

صدرت ثمرات الفنون نهار الثلاثاء من كل أسبوع، منذ انطلاقتها، واستمرت لمدة ثلاثين أسبوعًا؛ ثم غيّرت موعدها لتصدر نهار الخميس، ثمّ أصبحت تصدر يومي الإثنين والخميس أي مرتين أسبوعيًا، استجابة لطلب قرائها. وهكذا تبدل توقيت صدورها وعدد صفحاتها عدة مرات خلال مسيرتها. وبسبب الأوضاع الاقتصادية الصعبة التي مرّت بها الجريدة، تمّ بيع مطبعة ثمرات الفنون وبدأت بطباعة أعدادها في المطبعة الأهلية. وربما لم يكن السبب الاقتصادي هو الدافع الوحيد لبيع المطبعة، بل إن الرقابة المتزايدة على المطبوعات دفعت القيمين على الجريدة إلى بيع المطبعة تجنّبًا لتحمّل مسؤولية الطبع.

٢– ثمرات الفنون: الاستمرارية في ظل المكتوبجي.

يبدو غريبًا استمرار ثمرات الفنون لأكثر من ثلاثة عقود، في ظل جوّ من الرقابة التفصيلية والاعتباطية أحيانًا والتي كان يمارسها المكتوبجي ولا سيما في عهد السلطان عبد الحميد. فقد كانت الصحافة حتى بداية عهده مطلقة الحرية، تنشر من دون رادع، وكانت ثمرات الفنون الى جانب الجوائب، والجنان والجنة والبشير والتقدم، "تنشر المقالات الضافية الذيل عن مواقع الخلل في تركيا. بل إنها كتبت صريحًا عن مقتل الوزراء في دار الخلافة، وذكرت خلع السلطانين عبد العزيز ومراد الخامس، عن سرير الملك، وأذاعت خبر انتصار الروس عام ١٨٧٧..." (دي طرازي، ١٩١٣، ٢، ص ٧)، فأصدر السلطان عبد الحميد أمرًا يفرض فيه الكثير من القيود حتى غدت الصحف جسدًا بلا روح.

ويبدو أن ثمرات الفنون، لم تؤثر الهجرة الى مصر كما فعل الكثير من الصحف، إذ استمرت مدة خمسة وثلاثين عامًا تبعًا للحساب الهجري ، وأربعة وثلاثين عامًا تبعًا[٧]للحساب الميلادي منذ ٢٠ نيسان

[٧] بدأ نشر هذه الجريدة في ١٥ ربيع الأول سنة ١٢٩٢ – ٢٠ نيسان ١٨٧٥

١٨٧٥. واحتجبت خلال هذه المدة قسرًا لأربع مرات قبل أن تحتجب نهائيًا في المرة الخامسة حيث ودّعت عالم الصحافة نهار الإثنين في ٢٠ تشرين الثاني ١٩٠٨.

وعلى عكس ما يستدل من عنوانها، كانت ثمرات الفنون أبعد من جريدة أدبية فنية، فهي وإن تخلل مواضيعها مقالات أدبية وتغطية لبعض المناسبات والأحداث الثقافية إلا أنها كانت قبل كل شيء صحيفة سياسية، اجتماعية، محلية واقتصادية؛ أو كما تعرف هي عن نفسها على صفحتها الأولى: "إن هذه الصحيفة تحتوي على حوادث سياسية ومحلية وتجارة وفنون" (ثمرات الفنون، ١٨٧٥، ١، ص ١). ثم حذفت عبارة تجارة من تعريفها على الصفحة الأولى في ٦ كانون الثاني عام (ثمرات الفنون،١٨٨٢، ٧٦٥، ص ١)، ما يوحي بأنّها تحوّلت باتّجاه الأخبار المحلية والسياسة. أما كاتبو المقالات والمحررون في ثمرات الفنون، فهم من أبرز علماء وأدباء وفقهاء ذاك العصر [٨].

وفي دراسة لهدى الصباح بعنوان "ثمرات الفنون فهرسة ودراسة" حول حجم المواضيع التي طالتها الجريدة، تظهر هوية ثمرات الفنون على الشكل الآتي:

أخبار ونقاشات اجتماعية	٥٨٨	صناعة ومخترعات جديدة	١٢٠
سياسة ومعلومات سياسية	٥٧٠	زراعة	١٠٦
كتب (دينية وأدبية بالدرجةالأ ولى)	٣٦٠	تاريخ	١٠٥

[٨] الشيخ عبد القادر القباني: مؤسس الجريدة وصاحب امتيازها، قاض ورئيس بلدية بيـ ـت ومؤسس جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية. ومن الكتاب:

- الشيخ أحمد حسن طبارة: محرر ثمرات الفنو ن بعد الشيخ قباني أسس صحف "الإتحاد العثماني"، "الإئتلاف العثماني" و"الإصلاح" قبل أ ن يشنق مع شهداء الصحافة في ٦ أيار ١٩١٦.
- الشيخ يوسف الأسير الأزهري: مفتي عكا ومدعي عـ ـم مجبل لبنـ ـان، له مؤلفات في الفقه واللغ ـة وله رواية تمثيلية ألّفها ليعود ريعها لمساعدة ثمرات الفنو ن على الإنطلاق.
- الشيخ إبراهيم الأحدب: شاعر له العديد من المؤلفات، ويعدّ مرجعًا في عصره لأمور اللغة العربية وخاصة الشعر.
- أديب إسحق: عضو جمعية زهرة الآداب برئاسة سليم البستاني، ترجم مسرحية أندروماك وقدمها في مصر. له مؤلفات وعمل في المجال المسرحي.
- سليم بن عباس الشلفون: تعلم اللغة العربية نثرًا ونظمًا على الشيخ إبراهيم اليازجي، وعمل في الصحافة طوال عمره ولوحق ونفي بسبب مقالاته. من أبرز صحفيي عصره وأكثرهم تأثيرًا.
- إسماعيل ذهني بك: محاسبجي حكومة لبنـ ـان. وغيرهم...

أنباء اقتصادية وتجارية	٢٤٠	فلسفة	٩٠
طب وأنباء طبية	٢٤٠	علوم عامة	٦٠
صحافة وأخبار عنها	٢٣٤	جغرافيا ورحلات	٥٤
أخبار سياسية مع تعليق أحيانًا	٢١٠	لغة عربية	٥٠
نصوص قوانين مع معلومات وتعليق	٢١٠	سير أفراد	٣٦
مدنية وحضارة	١٩٣	آثار	٢٩
دين، أنباء بالدرجةالأولى عن العالم الإسلامي ومناقشات دينية	١٧٣	قصص قصيرة	٢٥
تعليم	١٥٥	مسرح	١٩
أدب	١٥٠	أخبار رياضية	١٥

وبمقارنة المحتوى، تبدو ثمرات الفنون سياسية بامتياز، محترفة في نقل الخبر، لافتة للنظر في التطرق إلى مروحة كبيرة من الأخبار والمقالات السياسية، في ظل رقابة المكتوبجي. فما هو السّرّ الذي دفعها للاستمرار بالصدور على الرغم من الأزمات التي عصفت بزميلاتها، والتي دفعت ببعضها الى الاحتجاب أو الهجرة الى مصر؟

في الواقع، نعمت الفنون والآداب ومن ضمنها الصحافة بفترة من الإزدهار في ظل حرية الرأي والتعبير في فترة السلطان عبد العزيز (١٨٦١ – ١٨٧٦). وتزامنت هذه الحقبة مع حكم الخديوي اسماعيل في مصر. واتسمت تلك الفترة بتشجيع العلماء والأدباء والشعراء وتشجيع الكتاب والصحافة. ووافق تاريخ صدور ثمرات الفنون السنة الأخيرة من حكم السلطان عبد العزيز قبل أن يُعزل. وتغطي صفحات تلك السنة مقالات النقد لأخطاء الحكام الأتراك كما يلاحظ هامش الحرية الكبير في الحديث عن حوادث حساسة في السياسة التركية، من خلع السلطانين عبد العزيز ومراد الخامس الى الحديث عن مقتل الوزراء في دار الخلافة الى الكلام عن الهزيمة التركية أمام الروس.

ومنذ البداية، كان خطٌّ "ثمرات الفنون" مواليًا للسلطة ساعيًّا الى المدح فيها دون لبس. ففي ٨ حزيران ١٨٧٥، أوردت: "قد شرف مدينتنا في نهار السبت الواقع في ٢٤ ربيع الثاني سنة ٩٢، حضرة صاحب الدولة والينا الأفخم، راكبًا باخرة عثمانية، وفي اليوم الثاني شرف حضرة صاحب الدولة رستم باشا، متصرف لبنان

الأفخم، فأضحت المدينة تنجلي بحلل المسرات والأفراح، والأهالي باسطين أكف الضراعة لتوطيد وتأييد شوكة هذه الدولة العلية العثمانية الشأن شاكرين همتَه وحسن إدارته اللتين صارتا باعثًا لنوال قضاء أهالي القضاء ممنونية أولياء الأمور، فلله دره من قائمقام قام بأداء فرائض لم تتأتى من قائمقام قبله..." (ثمرات الفنون، ١٨٧٥، ٨، ص ٢).

وكانت الحرية الصحافية مقبولة في تلك السنة، وتناقل الأخبار بكل تفاصيلها بدون الأخذ بأية اعتبارات كان مسموحًا لكل الصحف. مما دفع رستم باشا متصرف لبنان، حسبما ورد لثمرات الفنون، أن يصدر أمرًا الى مأموري الحكومة اللبنانية بالمركز كافة "ألّا يرسلوا الحوادث الواقعة الى كافة الجرنالات، وسبب ذلك على ما قيل أن بعض يحرر قبل الوقوع أو خلاف الواقع" (ثمرات الفنون، ١٨٧٥، ٣، ص ٤).

ومع تبوّؤ السلطان عبد الحميد العرش، واشتداد الرقابة قاسية على الصحف والمطبوعات، تحول أسلوب الكتابة الى الممالأة، والتطعيم بعبارات المدح والتعظيم لمقام الخلافة وللسياسة العثمانية. وعلى الرغم من مجاراة ثمرات الفنون لمناخ السلطان عبد الحميد الرقابي، إلا أنه لن يسلم من ضوابط المكتوبجي. إذ "لما أكثر المكتوبجي من حذف المقالات، ضجر عبد القادر قباني صاحب ثمرات الفنون، ذات يوم، فقال نرجوك أن تعين لنا خطة نجري عليها في نشر مقالاتنا، وترينا القانون الذي نخضع له في تحرير جرائدنا، فنظر اليه سعادته، وقال: ألا تدري أين القانون؟ فأجاب قباني أفندي سلبًا، وإذ ذاك وضع اصبعه على دماغه، وقال إن القانون هنا" (سركيس، ١٨٩٦، ص ٤٨).

كانت الإجراءات الرقابية شديدة، فبعد تصريحات السلطان عبد الحميد الثاني في خطاب العرش عام ١٨٧٧، أصدر أوامره الى الصدر الأعظم، يقترح فيها عليه "أن يمنع الصحافة من تجاوز الحريات التي تدعي أنها حصلت عليها عن طريق الدستور والتي تنشر بصورة مستمرة مواد من كل نوع وبالأخص المواد الخطرة". وفي رسالة أخرى في ٢ شباط ١٨٧٧ أكد لمدحت باشا الصدر الأعظم " أن تمتنع الصحف مستقبلًا من أن

تتبع –إما بطريق جهلها أو بطريق عنادها– سلوكًا مضادًا مع إرادته ومقاصد جلالته" (الرفاعي، ٢٠٠٦، ١، ١١٤).

والواضح، أن استمرارية الجريدة مرتبطة بكونها صوت المجتمع الإسلامي والمدافعة عن وحدة السلطنة عبر شدّ عصب الأمة، لا سيما العرب، في مواجهة التحديات التي تواجهها في تلك الحقبة التاريخية؛ من ثورة الهرسك، واتفاقية سان سيفانو، ومؤتمر برلين، واحتلال مصر، والحرب العثمانية اليونانية، والهجمة الصهيونية على خط الأزمة المالية، وغيرها من الأزمات التي عصفة بالسلطنة وهددت بانهيارها. فكانت الجريدة لسان حال السلطنة، والناطقة بهمومها وأزماتها، والداعمة لمواقفها في مواجهة الأعداء. وهي بخطابها، ملتزمة بالوحدة الاسلامية والعثمانية في مواجهة عوامل التفتت والعصيان والانفصال والتشرذم.

ومما قاله عبد القادر قباني في مقال جاء في سياق واجب نصرة الدولة العثمانية:"... وقد سولت لهم أنفسهم طلب تقسيم الولايتين هرسك وبوسنه، ويؤكد ذلك ما جاء في بعض الجرائد، من أن أحد وزراء الروسية قسم الممالك العثمانية في أوروبا، ولما نظرت دولتنا العلية سفاهة الصرب والجبل بطلبهما الولايتين المذكورتين، وبدأهما بالحرب وإثارة الشرارات، رأت أنه لا بد من كبحهما وتأديبهما باستعمال السيف، فأمرت بجمع عساكر الرديف في جميع ممالكها المحروسة، وأن تكون متقلدة للسلاح لأجل الذب عن الممالك المعجونة تربتها بدماء أسلافنا الكرام، فتجمع عندها الآن من القوة ما تقاوم به من يروم حربنا باستعمال العدوان، من أي دولة كان، وهذا بعون الله تعالى، ولا يخفى أن تلك البلاد، لم تصر لنا وطنًا الا بعد الجهد الجهيد، والحروب الكثيرة، فمن الواجب علينا أن نحامي عن وطننا العزيز، الشارب من دماء أجدادنا المسكية، بالمال والرجال، وندافعن العرض والعيال، ونبذل أرواحنا لنصرة الدولة والملة، ولا ننسى ما عد الله تعالى للشهداء، من الأجر وسعادة الدار، ولا ينال ذلك الا بالصبر والاخلاص، والامتثال أمر أمير المؤمنين..." (ثمرات الفنون، ١٨٧٦، ٦٦، ص ٢).

وضمن هذا الخط الايديولوجي، امتدحت ثمرات الفنون السلطان عبد العزيز في مقالاتها، وسرعان ما انتقل ولاؤها للسلطان الجديد عبد الحميد بعد توليه الحكم، مما يعني أن ولاءها كان لرمزية الخلافة ومقامها وليس لشخص الخليفة بحدّ ذاته. فكانت تتابع الحرب الروسية العثمانية بأدقّ تفاصيلها، وتركز على الانتصارات، وتهاجم الروس ووحشيتهم، وفظائعهم، وتشيد بقوة الجيش العثماني (ثمرات الفنون، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨، ١١٢، ١١٤، ١١٥، ١١٦، ١١٨، ١٢٧).

وتعدّد الثمرات منجزات عهد عبد الحميد الثاني، كما ورد في أحد الأعداد فهو "الرئيس الديني الأعظم للمذهب الاسلامي...ففي أثناء تبوئه سرير السلطنة العثمانية، خشي بعضهم أن يشتهر جهاد اسلامي، في جميع العالم، يقيم سدودًا لا تُفتح في وجه الغارات الغربية، وهو خطأ بيّن يدركه حتى أولئك الذين تصوروه وحسبوه أمرًا واقعيًا، ولو كانوا على هدى من حسن مزاياه، فإنه منذ تربع في دست السلطنة العثمانية، لم يوفر سعيًا، ولم يقصر في جهدًا في أن يوفق بين المشرق والمغرب... فإن الخليفة صاحب الإمامة الكبرى في (الشعوب) الإسلامية، هو وقت واحد ظهير وحامي جميع المذاهب والأديان... فضلًا عن أنه لا يوجد مذهب فرد، أو أية شيعة، في أوروبا، ليس لها في البلاد العثمانية نواب رسميون، وكنائس لإقامة فروض الدين، فإذا تدبرت هذا علمت لا شك أية درجة من الحرية وصلت المملكة العثمانية، وثبت لك أن هذا التقدّم، هو من آثار محاسن أعمال جلالة السلطان عبد الحميد خان، وممثل في شخصه الكريم، بثوب من الحياة النورانية" (ثمرات الفنون، ١٨٩٠، ٧٧٠، ص ٣).

وفي عيد الجلوس السلطاني والأعياد الرسمية، كانت ثمرات الفنون وحتى عام ١٨٨١، لا تذكر المناسبة بشيء. وبعد ذلك التاريخ اخذت تغطي المناسبة عبر الحديث عن الاحتفالات بالمناسبة، لا سيما في بيروت، وكانت صيغتها بالتبجيل كلامية، دون زخرفة الصفحة (ثمرات الفنون، ١٨٩١، ٨٤٨، ص ١؛ ١٨٩٢، ٨٩٤، ص ١ وما بعدها). ثم غدت تصدر بألوان مميزة للصفحة الأولى، وبتصميم خاص للمناسبة احتفالًا: "بهجة النفوس بعيد الجلوس" (ثمرات الفنون، ١٨٩٨، ١١٩٦، ص١) ؛ "الجلوس السلطاني للعام

الرابع والعشرين" (ثمرات الفنون، ١٨٩٩، ١٢٤٦، ص ١). وعام ١٩٠٠ في العدد ١٢٩٢، كانت الزخرفة طاغية على الصفحة الأولى، واحتلت الصفحة قصيدة مدح للسلطان (ثمرات الفنون، ١٩٠٣، ١٤٤٦، ص ١)[٩].

وعام ١٩٠٣: "افتر ثغر الثلاثاء الماضي، عن زينة زاهرة باهرة، احتفاء بذكرى عيد الجلوس الحميدي المجيد للعام التاسع والعشرين..." (ثمرات الفنون، ١٩٠٣، ١٤٤٦، ص ١). وعام ١٩٠٤، ظهر عددها مع حدود مزخرفة لكامل الصفحة الأولى احتفاء بالعيد، وهي تنقل خبر الاحتفالات بعد أكثر من اسبوع على حدوثها، بسبب العرض المسبق على المكتوبجي قبل الطباعة:"ابتسم ثغر يوم الخميس الماضي ابتهاجًا بذكرى جلوس حضرة سيدنا أمير المؤمنين الخليفة الأعظم، السلطان الغازي عبد الحميد خان..." (ثمرات الفنون، ١٤٩٦،١٩٠٤، ص ١). وكان لافتًا في ذلك العدد استعمال ألفاظ الخلافة المعظمة، وأمير المؤمنين بالأحرف الكبيرة، ولعل ذلك تناغمًا مع موجة الجامعة الاسلامية، ولقب الخلافة الذي أصرّ عليه عبد الحميد لشدّ أواصر السلطنة في وجه الأزمات التي تحيط بها من الداخل والخارج. ثم عاد عدد ٤ أيلول ١٩٠٥، ليحتفي بذكرى الجلوس السلطاني الحميدي السعيد للعام الحادي والثلاثين، ولكن دون ألفاظ التبجيل بالخط العريض، على الرغم من إدراجها في سياق المدح في الصفحة الأولى في سياق المقال:"في يوم الجمعة الماضي، تم لحضرة مولانا الخليفة الأعظم، ثلاثون حولًا على عرش الخلافة الكبرى، ومقر السلطنة الأسمى، تبوأه (أيده الله) وحالة الدولة في ارتباك، ووجه السياسة في اكفهرار" (ثمرات الفنون، ١٩٠٥، ١٥٢٨، ص ١).

ويبدو أن متابعة ثمرات الفنون لدعم العهد الحميدي، وكونها الناطقة باسم الشارع الاسلامي في بيروت، كانا عاملين أساسيين في استمراريتها على الرغم من الظروف القاسية التي مرّت بها الصحف في ظل الرقابة المتزايدة لا سيما في عهد السلطان عبد الحميد الثاني. فاستمرت بنقل الخبر، وعرض التحليل السياسي، حتى احتجبت كليًّا في ٢٠ تشرين الثاني ١٩٠٨، حيث توقفت الجريدة قسرًا عن الظهور، فوعدت قراءها بالعودة

[٩] راجع الملحق رقم ٢.

الى الصدور دون أن تتمكن للأسف من الإيفاء بهذا الوعد فكان التوقف نهائيًّا. وربما يمكن الأخذ بالاعتبار الوضع السياسي في السلطنة في ذاك الوقت، لفهم أسباب احتجابها كليًا.

٣–ثمرات الفنون: الخبر والسياسة بين سطورها.

كانت ثمرات الفنون تقسم صفحاتها الأربع بين عنوانين رئيسيين: حوادث سياسية وحوادث محلية، إضافة الى خانة الاعلان، فيما ختمت أسفل الصفحتين الثالثة والرابعة أحيانًا بنتاجات أدبية من قصائد وغيرها. ثم أضيفت اليها أخبار الجهات. كما أضيف اليها بعد أن كبر حجمها عناوين أخرى متنوعة مثل أخيار متفرقة، وصدى الإسلام، والآستانة العليا. "في شهر تشرين الثاني عام ١٨٨٩، كبرت حجمها فصارت أعمدتها ١٦ بعد أن كانت ١٢. وفي ١٢ أيار ١٨٩٩... صدرت بثماني صفحات، وكانت تصدر بأربع فقط. وبعد أن كانت صفحاتها الثمانية تتألف من ٢٤ عمودًا صارت ٣٢" (دي طرازي، ١٩١٣، ٢، ص ٢٥).

"وكان للمسلمين ثقة عظيمة بهذه الصحيفة التي بقيت لسان حالهم مدة طويلة لاسيما بعد احتجاب الجوائب في الآستانة"(دي طرازي، ١٩١٣، ٢، ص ١٨). وكانت جريئة في طرح الأخبار السياسية، متسلحةً بكونها الناطق الرسمي باسم المسلمين، وتدعو الى طاعة أمير المؤمنين، وطاعة الخليفة؛ في عصرٍ كان السلطان عبد الحميد يشدّ فيه أواصر الجامعة الاسلامية، ويدعو الى خلافة باسمه لمواجهة هجمات الغرب.

وتناولت الثمرات أخبار السلطنة السياسية كأولوية، ثم باقي الدول بحسب أهمية الأحداث. وكانت تنقل أحيانًا عن جرائد متعدّدة، مثل الصدى، البصيرة، بيل ميل، قاسم الأخبار، الكورسبوندانس اوترشين، بوتيليك كورسبوندانس، فاردو بوسفور، الليفانت هيرالد، الحدائق، الجوائب، الدايلي تلغراف، الديبا، وغيرها...

كما كان لثمرات الفنون مناظرات دينية وعلمية شهيرة مع جريدة البشير وغيرها(دي طرازي، ١٩١٣، ٢، ص ١٨). وكان أهم جدال بين الصحيفتين يتناول مسألة النخاسة التي قررت دول أوروبا إلغاءَها في شرق أفريقيا، وما وراءها من الصحراء، على يد الكاردينال لافيجري، فاستحسنت ثمرات الفنون هذا الرأي ولكن خشيت أن يكون القصد منه تنصير القبائل الاسلامية في تلك الأصقاع، وبسط الحماية الأوروبية عليها. فذهب البشير

غير هذا المذهب، بحجة أن عمل الكاردينال لافيجري هو محض خدمة لخير الإنسانية ولا علاقة له بالدين والسياسة"(دي طرازي، ١٩١٣، ٢، ص ٢٧).

وكانت تتابع كافة أعمال الأشغال في السلطنة، وتورد الأخبار حال توفرها. ومنها إنجاز طريق العجلات من بعلبك الى بيروت، كما يظهر لنا من خلال الخبر التالي:"يسرنا أن ننشر في صحيفتنا ما بلغنا من الأخبار السارة من طريق العجلات التي بوشر بعملها من مدة بين بعلبك (كما وردت) وشتورة، والآن بحوله تعالى قد قاربت الإنجاز، وصار ممكنًا للعجلات المسير الى بعلبك رأسًا دون أدنى مانع" (ثمرات الفنون، ١٨٧٥، ٩، ص ٤). إضافة الى متابعتها العديد من الأخبار والمعطيات السياسية في ذلك العصر.

كما تطرقت الى موضوعات مختلفة مثل الآثار (ثمرات الفنون، ٧-١٠-١٢-١٣-١٧-١٩-٢٠-٢٣-٢٦-٢٧-٢٨-٢٩-٣٠-٣٢-٣٣)، الأدب والنقد الأدبي، الاقتصاد، التاريخ والسير، التربية، والتعليم، الدين، الزراعة، الحضارة، الطب، الصناعة والاختراع، العلوم، الفلسفة، القانون، القصص، الكتب والمكتبات، اللغة والمسرح.

ومن الممتع ما نقلته عن الاختراعات، ومنه ما نقلته عن:" كوكب أميركا تكلمنا في عدد سابق عن اختراع رتجن أحد أساتذة الألمان الذي وجد أو اخترع طريقة لتصوير أشياء ضمن أجساد كثيفة، مثل أخذ رسم عظم الانسان وأمعائه ومعدته وقلبه، وكلّ ما يوجد داخله، من العروق والشرايين وخلافها. وعندما بلغ أمر هذا الاختراع أديسون الشهير، أخذ يهتم في تحسينه لتصوير مخ الانسان، النخاع..." (ثمرات الفنون، ١٨٩٦، ١٠٧٠، ص ٤).

وهكذا كانت ثمرات الفنون غنية تغني القارئ العربي الراغب بمواكبة التطورات التي تحيط به، من مختلف جوانب العصر، دون إغفال الأخبار السياسية المتعلقة بالسلطنة بالدرجة الأولى، وتلك المحلية المرتبطة بالتعيينات، والأحداث التي تطرأ على الحياة اليومية هنا وهناك.

ومن هذه الأحداث، اخترنا عدة موضوعات للتطرق إليها في هذا البحث ومنها : انتشار الهواء الأصفر في بلاد الشام، للنظر في كيفية تعاطي الثمرات معها، وثورة الهرسك والحرب العثمانية–الروسية، ثم معاهدة سان استيفانو وتلطيفها في مؤتمر برلين بزعامة بسمارك.

أ- أخبار الهواء الأصفر في "ثمرات الفنون"

وتناقلت ثمرات الفنون **أخبار الهواء الأصفر** وانتشار الكوليرا في بلاد الشام. فذكرت في ٢٢ حزيران ١٨٧٥:"أن الأخبار الواردة إلينا من الشام بخصوص الهواء الأصفر، متناقضة أكثرها ينفي وجوده، وبعضها يثبته على قلة. وبناء عليه، يترجح عدمه حيث مضى نحو عشرة أيام من خبر وجوده، فلو كان صدقًا لانتشر أعاذ الله تعالى جميع العالم من شره" (ثمرات الفنون، ١٨٧٥، ١٠، ص ٤).

ثم أكدت نفي انتشار الوباء:"إن أخبار المرض الذي لهج الناس الآن بذكره، أكثرها محض أراجيف، من وضع من يريدون سلب الراحة وتكدير الأفكار مع كون المرض في دمشق الشام لا يكاد يلتفت اليه ويتوهم سريانه لأن تأثيره أقل من القليل والذين يصابون به بالنسبة كمثل الشام شيء لا يذكر، وليقيسوا ذلك بما كان يفقد به العام الماضي، مما تجاوز الستين، وليزيلوا الوساوس من أفكارهم التي تحول دون قضاء أوطارهم على أن المرض المذكور كاد يتلاشى من حماه بالكلية كما وردت بذلك الأخبار الصحيحة...وفي يوم الأحد غرة جمادى الثانية لم يمت أحد بحماه" (ثمرات الفنون، ١٨٧٥، ١٢، ص ٤).

وذكرت الثمرات استعدادات ولاية بيروت لمواجهة حالة طوارئ في حالة تفشي الهواء الأصفر:"في الأسبوع الماضي، كان أنهى سعادة المتصرف الأفخم لجانب الولاية الجليلة بلزوم تدارك مستشفيات بلوازمها من أطباء وأدوية في بيروت إذا لا سمح الله حدث شيء وأنه يقتضي لذلك صرف شيء من الخزينة واستأذن لترتيب ذلك وصرف ما يقتضي، فبلغنا أنه صدر الإذن بما ذكر فنقدم لسعادته مزيد الثناء ونخلص لمساعيه الجليلة الدعاء"(ثمرات الفنون، ١٨٧٥، ١٢، ص ٤).

وفي نقلها أخبار الهواء الأصفر في دمشق أشادت إلى أنّ"المرض المعلوم ما زال موجودًا في دمشق الشام، وقد امتد الى خارجها في جهات حوران، وأما في حماة فقد زال بالكلية ولم يبق له أثر. وأما بيروت فهي ولله الحمد نقية، من هذا المرض، والمرأة التي حضرت من الشام في الجمعة الماضي واصيبت به ليلة السبت وتوفيت عند صباح يوم الأحد، فقد حضرت والمرض معها، كما حصل نظير ذلك في زحلة وقب الياس وجزين وصيدا ولم يحدث بعد ذلك في الجميع شيء ونتأمل من لطفه تعالى أن يحفظ العموم من شرّه ويزيله من جميع الأماكن وما ذلك على الله بعزيز"(ثمرات الفنون، ١٨٧٥، ١٤، ص ٤).

ونقلت في ٢٧ تموز ١٨٧٥، استمرار تفشي المرض في دمشق، "وأكثر ما يوجد الآن في الميدان والصالحية، وقد فهمنا من الأخبار الأخيرة أنه موجود في حمص وأنطاكية والسويدية، لكنه خفيف، وأما مدينتنا بيروت، فإننا نتأمل ان تكون نقية منه..." (ثمرات الفنون، ١٨٧٥، ١٥، ص ٤). كما ذكرت الإجراءات التي قامت بها متصرفية جبل لبنان: "بأمر دولة متصرف لبنان الأفخم، قد أجريت قاعدة التحفّظ فيه من جهة البقاع، فسدت الطرق الموصلة اليه من جهته، وتعين لها مأمورون سوى جزين والباروك وزحلة، فإنه ترك منها طريق جعل في رأسه محل قورنتينه يقام فيه ستة أيام لمريد الدخول من تلك الجهة ومن يريد الى الجبل من سواها يرد"(ثمرات الفنون، ١٨٧٥، ١٥، ص ٤).

وانتقدت الجريدة مبالغات جرائد إزمير في نقل أخبار الوباء في الشام، وأكّدت أنّ المرض زال من حمص وحماه بالكلية، ونفت ما شاع من وجوده في صور، وأما في بيروت، فأشارت إلى أنه لم يبق محل للتأويل.. حيث كانت الوفيات اثنين الى ثلاثة (ثمرات الفنون، ١٨٧٥، ١٦، ص ٤). وبلغ الجريدة من أخبار عكا ونابلس وصور وصيدا، أنها نقية، وأنه تلاشى من دمشق الشام، وأن الإصابات خفيفة في حلب وحماه وحمص، وبيروت. وأن طرابلس نقية وقد جرى الحجر الصحي عليها لمدة خمسة أيام من ناحية نهر البارد والهري والبحر. كما أجريت قواعد التحفظ على القادمين الى الشام لضبط انتشار المرض (ثمرات الفنون، ١٨٧٥، ١٧، ص ٤). وفي عدد ١٨ آب ١٨٧٥، عرضة الثمرات ما آلت اليه الأمور من إنشاء القورنتينه

(الكرنتينا) في محيط بيروت للتحفظ عليها، حيث امتد المرض الى قرى سوق الغرب، ورشميا وكفرشيما، وبرجا والشياح، وحارة حريك والبرج وجبيل والبترون، وحمانا وغيرها ... (ثمرات الفنون، ١٨٧٥، ١٨، ص ٤).

وتروي الثمرات انتشار الهواء الأصفر في صور وصيدا وطرابلس وجبلة واللاذقية، بشكل خفيف... "فما أبغضه من ثقيل وطالت علينا شقة إقامته"(ثمرات الفنون، ١٨٧٥، ١٨، ص ٤). ثم ينقل بعدها بأيام انحسار الوباء، "فالحمد لله الذي أذن بزواله، ووضع عنا ما لا قدرة لنا على حمله، فلم يبقى له من الأثر الذي ابكى العين..." (ثمرات الفنون، ١٨٧٥، ٢٠، ص ٤).

ب- ثورة الهرسك في "ثمرات الفنون".

ومن ممتع الأخبار التي تناولتها "ثمرات الفنون" في تلك الفترة، نقلها لثورة الهرسك. إذ أدى التدهور المستمر في قوة الإمبراطورية العثمانية إلى ظهور الحركات القومية في مقاطَعات البلقان المسيحية. ففي آب ١٨٧٥، إندلع عصيان الصرب في الهرسك وانتقل بعد ذلك إلى البوسنة وبلغاريا. وأدى إخماد التمرُّد بطُرُق دموية بالغة القسوة إلى هجرة جماعية للسكان المسيحيين إلى ولايتي الجبل الأسود وصربيا، ما دفعهما في ٣٠ حزيران ١٨٧٦ الى إعلان الحرب على الإمبراطورية العثمانية. ومع مطلع الخريف كانت جيوشهما قد مُنيَت بالهزيمة. إلا أن روسيا، حليف الجبل الأسود وصربيا، أرسَلَت قواتها إلى البلقان في ١٣ نيسان ١٨٧٧ بعد أن تأكَّدَت أولًا أن مملكة النمسا والمجر سوف تقفان على الحياد. وأسفر الصدام بين الجارتين في القوقاز والبلقان عن هزيمة القوات التركية على الجبهتين، واستتبع ذلك توقيع الإمبراطورية العثمانية هدنة سان ستيفانو في ٣ آذار ١٨٧٨. ومع تعديل هذه الهدنة في مؤتمر برلين برئاسة بسمارك الألماني، وانتهاء النزاع بمعاهدة برلين لعام ١٨٧٨ (المحامي، ١٩٨١، ٦٠١-٦٧٨) [١]، احتلت النمسا-المجر البوسنة والهرسك، وفقدت بلغاريا مقدونيا التي ظلت جزءًا من الإمبراطورية العثمانية، على حين أصبحَت بقية البلد مقاطعة تتمتع بالاستقلال الذاتي، أما الجبل الأسود وصربيا فقد حصلا على استقلالهما.

١- تفاصيل ثورة الهرسك والتدخل الـ وبي وبـ ن ستيفانو ومؤتمر برلين ومقرراته.

ومما نقلته ثمرات الفنون من هذه الأحداث، منع تداول النقود التي ضربها أمير الصرب وعليها صورته في الممالك المحروسة (ثمرات الفنون، ١٨٧٥، ١٤، ص ٢). ويبدو أن تمرّد الصرب كان له تمهيدات قبل انتشاره في تلك البلاد؛ فقد أدرجت الجريدة خبرًا في ٧ ايلول ١٨٧٥ تحت عنوان حادثة هرسك: "إن هذه الفتنة تفاقم أمرها... وأصل ذلك أن أهل قرية مستار (Mostar) امتنعوا عن أداء ما عليهم للدولة العلية، فسار نحو مائتي رجل منهم الى حدود الجبل الأسود فشفعوا بهم مأموروه، فشفعوا، ورجعوا ولكن بعد رجعوهم، طردوا الضبطية، وأثاروا سكان بعض القرى على العصيان، ثم أوقعوا بقافلة وقتلوا السواق، وهم من المسلمين، فلما وصل ذلك مسامع الدولة العلية، أمرت مأموريها المقيمين في تلك الجهة، لتعيين الحدود بين الولاية والجبل الأسود بالبحث عن أصل ذلك الشعب، لكن أولئك أصروا على عدم أداء شيء مما عليهم، فأمر والي البوسنة أن يرسل الى تلك الجهة فرقة من العساكر لإقرار الأمن وإرجاع الطاعة، غير أن تلك الفتنة ما زالت بازدياد، حيث بلغ مقدار الثائرين نحو اثني عشر ألفًا..." (ثمرات الفنون، ١٨٧٥، ٢١، ص ١). واستمرت الجريدة بسرد بعض التفاصيل الأخرى.

ثم نقلت في ١٤ ايلول ١٨٧٥ اخبار المشاكل في الهرسك، حيث قللت من حجمها وانتقدت الصحف الأوروبية التي نقلت اخبارها حيث جاء في أحد أعدادها:" جعلت هذه الحادثة محلًا لمبالغة الأخبار التي تشغل الأفكار حتى اشتغلت بمذاكرتها دول أوروبا وهي في الحقيقة دون ما تنشره الجرائد، وما زالت الدولة العلية أخذةً بالحزم والعزم لاطفائها قبل الشتاء، ولذلك ارسلت مهمات حربية من عساكر وخيل ومدافع حتى بلغ مقدار العساكر المجتمعة في هرسك أربعين ألفًا..." (ثمرات الفنون، ١٨٧٥، ٢٢، ص ١). وتشير إلى أن الجيوش الرديفة اجتمعت برئاسة حسين عوني باشا ومقدارها سبعون ألفًا لملاحظة أهل الصرب والثائرين فيها. وأن أخبار ما يجري في الهرسك ما تزال غامضة.

وفي كانون الثاني ١٨٧٨، نقلت الجريدة عن الثمرات وضع التقهقر العثماني مقابل الانتصارات الروسية في بلغاريا: "ورد من الآستانة بتاريخ أمس تثبيت طلب الباب العالي الهدنة من الروس، رأسا اتّفق

على مبادئها، ولذلك سيتوجه وزير الحرب، حالًا لتقرير الشروط. حل الروس في قزانلق، ويتهددون كلاوا. وفي ١١ منه الباب العالي عين أحمد مختار باشا لإجراء مخابرات الهدنة. الكرندوق نقولا الذي سيتمم ذلك باسم روسيا، طلب إفادات القيصر. وفي ٩ الجاري استولى الروس عقب معركة ذات بأس على شعاب شيبكا (Shipka) وعلى مجمل العساكر العثمانية وعددها ٤١ طابورًا مشاة، و١٠ بطاريات طوبجية وقعت في أيدي الروس الذين حلوا في قرية شيبكا وقزانلق... فإذا فرضنا أن مجموع الطابور خمسماية رجل يكون مجموع عساكر شيبكا ٢١ ألفًا، وإذا أضفنا ذلك الى الأسرى التي لنا في روسيا، يبلغ الكل زيادة عن ماية ألف من أحسن العساكر انتظامًا، فماذا نقول (لا ندري والله)" (ثمرات الفنون، ١٨٧٨، ١٤٢، ص ٢).

ويلي هذا العدد سردٌ وافٍ عن العمليات العسكرية الجارية في لحظاتها الأخيرة، واصطدام العثمانيين بالبلغار والصرب في وادي سوبران وبيرت، واضطرارهم إلى الانسحاب من بيرت باتجاه صوفيا. وأوردت استطلاع إنكلترا للشروط الروسية المطروحة لعقد الهدنة مع الدولة العلية، وذكرت في رسالة أتتها من باريس أنّ إنكلترا تدافع كل الدفاع عن حرية البوسفور والدرنيل"(ثمرات الفنون، ١٨٧٨، ١٤٣، ص ٣).

وقبل إعلان نهاية الحرب بمعاهدة سان ستيفانو، نقلت الثمرات في ٧ شباط ١٨٧٨، خبر الصلح بين الروس والعثمانيين الذي وُقّع بتاريخ ٣ شباط: "ليلة الجمعة، أمضى القرار الحاوي على أساسات الصلح العمومية والهدنة وأمضى أيضًا اتفاق الهدنة بين القواد العثمانيين والروسيين الحاوي لتفرعات المتاركة، واتّفق على الغاء حصر البحر ألسود وإعادة المواصلات التلغرافية"(ثمرات الفنون، ١٨٧٨، ١٤٥، ص ١). وفي العدد نفسه، يبدو أن الرقابة على الصحف تدخلت لتهيئة الأجواء للصلح مع الروس فأوردت الآتي:"أخطرت نظارة المطبوعات جميع الجرائد التي تطبع في البلاد العثمانية أن لا تتفوه بلفظة واحدة تكدر خاطر الروسية"(ثمرات الفنون، ١٨٧٨، ١٤٥، ص ٢).

وتتابع الجريدة في العدد نفسه، عرض وقائع الانسحاب العثماني من أدرنة وإحراق السرايا، والمخاوف من دخول الروس إلى الآستانة:"هل يقدم الروس الى الآستانة؟هي مسألة تواترت على الألسن، وتداولتها الشفاه،

ولا يمكن الجواب عنها بالتأكيد كمسألة متعلقة بأمور الغيب، لكن يظهر أن الأمر لا يصل الى هذا الحد، وأن السلم سيعقد في أدرنة، وأن كثيرًا من العمال يتجمعون لمنع الروس من أن يقذفوا بعساكرهم الى حد العاصمة؛ وبين هؤلاء العمال لا توجد فقط مراعاة للإحساس العثماني، بل قوة الدفاع التي تستعمله بعض الدول، وإنكلترا في أولهم... وأثبتت الجرائد التركية ما ذكرته مكاتبنا عن دخول الروس الى أدرنة حيث قالت إنه في نهار الأحد بعد الظهر تم الدخول إليها وأن من دخلها من الروس يقدروا بنحو ١٢ طابورًا من المشاة، وفرقتين من الخيالة، وقد نُشر إعلان رسمي يؤكد لأهل الآستانة أن الحكومتين العثمانية والروسية ترغبان في الصلح، وأن كل ما يشاع من أخبار عن دخول الاستانة من شأنه إحداث المخاوف والقلق، وأنّ مطلقي الشائعات يحاكمون في مجلس حربي بموجب الإدارة العرفية "(ثمرات الفنون، ١٨٧٨، ١٤٥، ص ٢).

ونقلت ثمرات الفنون عن جريدة الأخبار، بعض أخبار المعاهدة ومنها:"في ٢١ شباط، تعيين صفوت باشا ناظر الخارجية؛ في ٢٥ منه، من المحتمل أن يصير إمضاء الصلح اليوم أو غدًا في سان ستيفانو حيث وصل أمس المعتمدون العثمانيون الى معسكر روسيا العام(ثمرات الفنون، ١٨٧٨، ١٤٨، ص ٤).

وبعد إقرار الاتفاق، تنقل الثمرات عن الديبا تحت عنوان النمسا والمجر:"إن موسيو تيزا رئيس الوزارة أجاب عن سؤال عرض عليه بخصوص المسألة الشرقية بأن وزارة فيينا أعلنت منذ مدة أنّها لا تصادق على شروط الصلح إلا بمشاركة بقية الدول الموقعة على عهدة باريز، وأنه بناء على طلب روسيا، قد عدل القونت أندراسي عن جمع مؤتمر واستعاض عنه بلجنة أوروبية ترتب الاتّفاق بين جميع الدول...وحيث أنه لا يمكن تفصيل كل ما اتّفق عليه المتحاربون، فيكتفي أن يعلن أن بعض تلك الشروط مغاير لمصالح النمسا والمجر كما أعلنه القونت اندر اسي حيث قال إنّ بعض تلك الشروط تمسّ مصالح السلطنة النمساوية ثم قال إنّ المسألة لا تتعلق الآن بتحسين حال النصارى فقط، بل بانقلاب وتغيير السلطة في المشرق..." (ثمرات الفنون، ١٨٧٨، ١٥٠، ص ٢).

وتورد الجريدة الاستعدادات لمؤتمر برلين، والعروض المقدمة لبسمارك المعترض على مجمل المؤتمر. ففي "رسالة من برلين أن البرنس بسمارك يقبل رياسة المؤتمر في برلين بشرط أن إنكلترا تصادق عليه" (ثمرات الفنون، ١٨٧٨، ١٥١، ص ٢). وتنقل عن الجرائد تباعًا عن صدام قد يحصل بين روسيا وإنكلترا، "فإن جرائد الفريقين يهدد بعضها بعضها الآخر، فقال الستاندر والمورنن بوست وغيرهما أنه من اللازم تلطيف معاهدة صان اسطفانو، بالحرب والسياسة..." (ثمرات الفنون، ١٨٧٨، ١٥٣، ص ٤). وتنقل أعداد الجريدة اللاحقة أخبار تفصيلية عن الخطابات العدائية بين الطرفين، واستعدادات الحرب، ومحاولة زج الدولة العلية في الحرب الى جانب الروس.

وتفيد الثمرات في أوائل أيار ١٨٧٨ عن تحركات عسكرية روسية في محيط الأستانة: "تكلمت جريدة لا توركي عن تفرق العساكر الروسية المجتمعة في سان اسطفانو، في ضواحي الأستانة، وهذا لا يفيد إفادة تامة عن حركات الروس وأغراضهم، فإن ١٧ ألفًا الذين كانوا في سان اسطفانو نُقل نحو عشرة آلاف منهم إلى قرى الخط الذي يمرّ في سان اسطفانو وينتهي الى بوغازكوي، وهي قرية جعلها الروس طريق عسكرهم لسان اسطفانو، وهذا التفرّق لا يدنيهم من الأستانة أكثر مما قبل، حين حدوث الاضطراب بدخول الأسطول الانكليزي الى بحر مرمرا، حتى إنّ الوزير الأول العثماني أجرى تسوية مع الروس شفاهية تقدموا بسببها الى سان اسطفانو... ثم إن حركات الروس التي بحث بها صديقنا صاحب لا تركي تجاوزت حدود تلك التسوية الشفاهية، فربما يكون لها بعض أهمية حربية، لأن أحد الضباط الخبيرين رأى ذلك، لكن الروس يعتذرون بأن الضرورة ألجأتهم الى هذا التفرق، بسبب الحمى التي فشت في سان اسطفانو، وهو مرض لا يزيله إلا مرتفعات الخط الى حد بوغازكوي..." (ثمرات الفنون، ١٨٧٨، ١٥٧، ص ٢).

ويبدو أنَّ توازنات الرعب بين الروس والإنكليز شجعت على تدخلات الدول الأخرى ولا سيما الألمان مع بسمارك لتلطيف معاهدة سان ستيفانو. فقد تعقد الوضع العسكري بين الطرفين، بوقوفهم متقابلين عسكريًّا. فإنكلترا لن تخرج أسطولها من مرمرة إذا لم تبتعد روسيا بعسكرها عن البوسفور والدردنيل، وهذا كان حينها

مستبعد. فقد عقد الروس مجلسًا حربيًا من ٢٧ قائدًا لبحث احتلال الآستانة، وبيوك درة وكليبولي، "فقرر كثيرون الحلول في المحلين الأخيرين، وأعلنوا خطأهم العظيم حيث بقيوا الى الآن بدون استيلاء عليهما، وقد بحثوا في أفكار الدولة العليّة، وبحثوا في أن يطلبوا منها إخلاء بيوك درة وبولاير بدون مقاومة، فجزم كثيرون باقتحام الأخطار، ومقاومة الترك ثانية، والاستيلاء على كل المحال المذكورة التي إذا دخلت في حوزتهم يصير في غير الإمكان أخذها منهم..." (ثمرات الفنون، ١٨٧٨، ١٥٨، ص ١–٢).

وبدأت تطرح حلول المسألة الشرقية، واستنساخ التجربة الدولية في متصرفية جبل لبنان، على رأي جريدة الديبا كالآتي: "أن ترفع السلطة العثمانية الإدارية من الروملي والبوسنة وهرسك وبلغاريا وترحاله وإبيره ومكدونيه الخ ويترك لهم في تلك الولايات سلطة الحرب وسيادة السياسة بأن يحلوا في قلاع الطونة، ويحفظوها لمصلحة أوروبا، ويصير تنظيم الولايات بمساعدة لجان أوروبية، بحسب لائحة مؤتمر الآستانة ونظام جبل لبنان، ويقام لإدارة أحكام كل من هذه الولايات، أمير مسيحي يسميه الباب العالي، مدة معلومة بمصادقة الدول، ويرفض ما قر عليه الرأي من جعل البلغار نصف مستقلة، ممتدة الى الأرخبيل، وجعلها كالبوسنة والهرسك، ولاية مستقلة الإدارة حدودها البلقان، الى قرب ولاية الطونة القديمة، أما أفواه الطونة ومضايق الآستانة وقناة السويس، فإن جميع تركيا تعتبر قسمًا ضمن دائرة المصالح العمومية، ويترتب عليها اتفاق جميع أوروبا فعلى ذلك بنظم لائحة عمومية تلاحظ بها أوروبا جميع أعمال تركيا..." (ثمرات الفنون، ١٨٧٨، ١٥٩، ص ١).

ثم بدأت أخبار مؤتمر برلين وتحضيراته تُنشر في جريدة الثمرات نقلًا عن جريدة الغلوب ومنها:"إن اجتماع المؤتمر تأكّد الآن، وإن حكومتي روسيا وإنكلترا اتفقتا على طرح المخابرات الآتية:

أولًا: تقسيم البلغار الى ولايتين إحداهما في شمال البلقان والثانية في الجنوب. بما لا يمتد بها الى بحر الأرخبيل تحت حكم أمير مسيحي ولجنة إنكليزية.

ثانيًا: إن العساكر العثمانيين الذين يخرجون من هذه الولاية الأخيرة، لا يعودون إليها ثانية.

ثالثًا: إن انكلترا تتأسف من انضمام بسارابيا الى الروسية لكنها لا تعترض عليها.

رابعًا: يحق لانكلترا أن تطرح في المؤتمر مسألة حقوق جميع الدول المتعلقة بالطونة ليجري الفحص عليها.

خامسًا: إن انكلترا لا تعدّ انضمام باطوم من جملة حقوق روسيا الحربية، وقد أخذت من روسيا وعدًا شافيًا بأنها لن تتقدم الى أمام حدودها الأممية الجديدة.

سادسًا: ترجع روسيا للدولة العلية بيازيد بناءً على طلب إنكلترا، وعلى الدولة العلية أن تعطي العجم مقاطعة كوتوو بمقابل لذلك.

سابعًا: يتعين على الروسية ألا تأخذ من الدولة العلية أراضي بمقابل غرامة الحرب المعنية وأن لا تزيد ارتباكات الدولة العلية بالغرامة، ما يجعل دائنيها الانكليز في قلق، أما دفع تلك الغرامة فيجري الفحص عليها في المؤتمر.

ثامنًا: يتعين على المؤتمر أن ينظم في أيبيريا وترحالة وبقية الولايات اليونانية.

تاسعًا: على الروسية أن تصادق ببقاء خلجان الدردنيل والبوسفور كما كانا قبلا.

عاشرًا: تبسط إنكلترا في المؤتمر مسألة تنظيم البلغار من أوروبا وتنقب عن مسألة الحلول في رومانيا" (ثمرات الفنون، ١٨٧٨، ١٦٣، ص ١).

وفي ٢٠ حزيران نقلت الجريدة خبر افتتاح مؤتمر برلين والذي جاء فيه: "في يوم الخميس الموافق ١٣ حزيران، وهو اليوم المعين، جرى احتفال افتتاح مؤتمر برلين الذي يترقبه العالم، لإثبات سلامه ونجاحه ... ونعده مقدمة للفوز لنا، كما نحسبه أعظم ربح ونجاح لسياسة أوروبا لقرار السلام وفي أملنا ترجيح أن نتيجة أعمال هذا المؤتمر تعود علينا أعظم صلة من الفوائد... ويقال، على ما هو شائع، إنّ أعضاء المؤتمر لا تتجاوز مدة إقامتهم في برلين أكثر من عشرة أيام، حتى يتمكنوا فيها من الاتفاق على وضع الشروط الأساسية، التي هي غاية اجتماعه، ثم تسلم هذه الشروط الى لجنة أوروبية لتقرر شعبها وفروعها بالتفصيل"(ثمرات الفنون، ١٨٧٨، ١٦٤، ص ١).

وبعد اختتام الاجتماع، نقلت ثمرات الفنون خبر فض مؤتمر برلين، ولكن يبدو أن التفاصيل كانت ما زالت غامضة ومضطربة في وصولها للصحف بحسب ما نقرأه في ما يلي:"فض مؤتمر برلين بعد أن أمضيت قراراته افتتح في ١٣ حزيران ١٨٧٨، فتكون مدة المفاوضات ازدادت شهرًا واحدًا، على أن ما ورد من أخبار أعماله كان في غاية الابهام والاضطراب. وما هي المعاهدات التي أعلن بسمارك واندراسي دوام الوفاق عليها بين الدول الغربية، لعلها سلمية، وقد أخبرنا أن جريدة "النوفل برسل" النمساوية نشرت ملخص عهدة برلين ولا بد من أن النفوس تتوق الى مطالعتها لتعلم النتيجة..." (ثمرات الفنون، ١٨٧٨، ١٦٨، ص ١)، ولم يتسنَ للثمرات نشرها تفصيليًا سوى في ٥ آب ١٨٧٨(ثمرات الفنون، ١٨٧٨، ١٧١، ص ١–٢).

وتستمر الثمرات في نقل العديد من الأخبار، من بينها، تحركات الأشقياء على التخوم العثمانية اليونانية قبل اندلاع الحرب، وعلى التخوم البلغارية (ثمرات الفنون، ١٨٩٥، ١٠٣٨، ص ١). والحرب اليونانية التركية التي بدأت في أواخر نيسان ١٨٩٧ على ما نقلته من أخبار المعارك، وآراء بعض الجرائد الأوروبية تجاه اليونان:"فضلًا عن خسرانهم ولاء أكثر الدول الأوروبية، فقد صرحت جرائد ألمانيا، بأنه ينبغي أن يذوق اليونانيون مرارة الحرب، ليعرفوا جميل السلام، وهكذا قالت جرائد النمسا والروسية وكذا الجرائد الفرنساوية، فإنه مع إظهار بعضها الميل الى اليونان، لم يسع أهمها، إلا امتداح الجيش العثماني المظفر ووجوب تأييد الاتفاق الأوروبي. ومما قالته الجرائد الروسية، أيضًا أن الدولة العلية صبرت صبرًا عجيبًا على التحرشات اليونانية لها، وأن اليونان أظهرت جنونًا لا يوصف باحتقارها مشورات أوروبا ... وقد اتهمت الجرائد الروسية إنكلترا بأنها هي التي حرضت اليونانية على التهور في مهاوي الحالة الحاضرة، بتشجيعات وتحريضات سرية، ومساعٍ سياسية كالمساعي التي حالت سابقًا دون حل للمسائل الكريتية"(ثمرات الفنون، ١٨٩٧، ١١٢٧، ص ١).

الخاتمة

على الرغم من هذا التباعد الزمني بين الحدث والأخبار عنه، لا يمكن إنكار الدور الفاعل الذي أدّته الثمرات ومثيلاتها في نقل الأحداث وتوثيقها، وتتبع تفاصيلها، حيث كانت هذه الحقبة من الكتابة الصحفية،

الحقبة الذهبية التي ما لبثت أن اضمحلت تحت وطأة توجيهات السلطان عبد الحميد، ما دفعها الى الاحتجاب والتوقف عن الصدور، لكثرة الضغوطات لاسيما بعد نمو حركة التتريك، والقهر الذي مارسته بحق الأصوات المعارضة ولا سيما الصحف.

ويبدو أن روحية الحرية، ومحاولة تحصيل حقّ الكلمة بالعبور الى فضاء الناس، كان الهاجس الذي دفع هذه الجريدة إلى الاستمرار. فقد خطّ شيخها مقالة الحرية عام ١٨٨٠، في العدد ٢٨٤، مميزًا بين عهدٍ وعهد قائلًا: "وقد مضت علينا عصور مظلمة، كانت الحرية مشوبة فيها بالاستبداد، والتسوية غير سائدة، لكن الأحوال تغيرت، فمُنحت بلادنا منذ أيام المرحوم السلطان عبد المجيد مبادئ الحرية والمساواة، وكمل لها أعظم نصيب في حضرة سلطاننا الحالي المعظم (عبد الحميد الثاني)، فلم يبق علينا إلا أن نطالب بحقوقنا التي ضنّ بها علينا بعض المستبدين الذين يفضلون المحبة الذاتية التي هي أساس كل تأخر، وسبب كل ضرر على المنفعة العمومية، المنوط بها سعادة الملك، والرعية، فالوطن بأهله، وعزّهم باتفاق كلمتهم على جر المنفعة اليه، بصرنا الله بما يجب علينا ولنا، وألهمنا بفضله رشدنا" (ثمرات الفنون، ١٨٨٠، ٢٨٤، ص ١). وكأني بهذه الكلمات التي كان ينبغي أن تأتي قبل احتجاب الجريدة بأيام، عام ١٩٠٨، ترسم صورة تاريخية لرغبة النخبة بنقل الكلمة، والتمسك بالحرية، ولو في أحلك الظروف، وتحت ضغط الترهيب والتنكيل، فكانت صحيفة الثمرات الأولى عام ١٨٨٠، سابقة لعصرها، ولاحقةً لعصر دمره الاستبداد، غير أنه فشل بتشتيت العقول النيرة، وتبديد كلماتها التي ابتدعت ألف طريقة وطريقة لتوصل الينا "الكلمة" منذ البدء.

ملحق ١:

مقدمة الجريدة– العدد ١

يد وتو م الثلاثاء في ربيع الا ول سنة ١٢٩٢ –هجري

بسم الله الرحمن الرحيم

حمدا لمن أنشأ حوادث الأشياء كما شاء بقدرته وتصرف بها سبحانه وتعالى بصرف اختياره على مقتضى حكمته، وخصّ بها الأخيار والأشرار خبرة وعبرة لذ ي الأختبار والأعبار، ومكّن من بلغوا كلامه كما أنزله وجازاهم على ذلك بأعلى منزلة وصلاة وسلامًا على من بلغنا بلغته البليغة بوقائع أحوال الأمم لنقتضي بذ ي الأهتداء ونحترس من الضلال على النهج الأمم وعلى سائر الأنبياء الأخيار الذين صدقوا في الأنباء والأخبار.

لا شك أ ن طاعة الخلاق ومكارم الأخلاق ونفع الخلائق في طبع الشريف مغ وسة وكامه الكرا م المقتر نبه في الأحكا م وفي حسن سلوكهم في ن الناس كما قيل على دين ملوكهم. مستكملة محاسن الأخلاق لأ سواف حفظها الله تعالى مدى الأيا م من كل بلية ولما به تشيد بنيانها وتشيد أركانها لا فتئت برعاياها مقتدين بمزاياها مواظبين على الأدعية الخيرية. وفي ظل هذه الا ولة المحبة للتقد م والنجاح أعني جمعية ثمرات الفنو ن لإنشاء صحيفة أخبار ذات فوائد بها تقي العيو ن، ويليق بها الانتشار، وحيث أني أحد أعضاء هذه الجمعية فهؤلاء الجماعة ذ ي الألمعية تنا واأ ن أكو ن مديرا لهذه الصحيفة، فاستخرت الله تعالى وأجبتهم إجابة المطيع وها أنا ذا باذل جهد المستطيع وأسال الله تعالى أ ن يديم توفيقنا لما فيه رضاه.

وقد استدعيت من ملجأ الا لية سورية البهية أدامها الله الى نظارة المعارف الزاهية بطلب الرخصة الرسمية، وحصل ذلك وحضر الأمر من الاستانة العلية مشتملا على المطلوب والثمين لهذه الجمعية لا زالت موافقة للصواب، ولتشرع في المقصود، مستعينا الله المعبود، فتقول: لا يخفى أ ن صحائف الأخبار الحادثة في هذه الأعصار من أجل أسباب التقد م والترقي، ومن أجل بواعث التحفظ لأنها تنشر أعمال المحسنين وثوابهم, وتشهر أعمال المسيئين وعقابهم فيرغب في الخير.

عبد القادر قباني

ملحق ٢: العدد ١٢٩٢ لمناسبة عيد الجلوس السلطاني

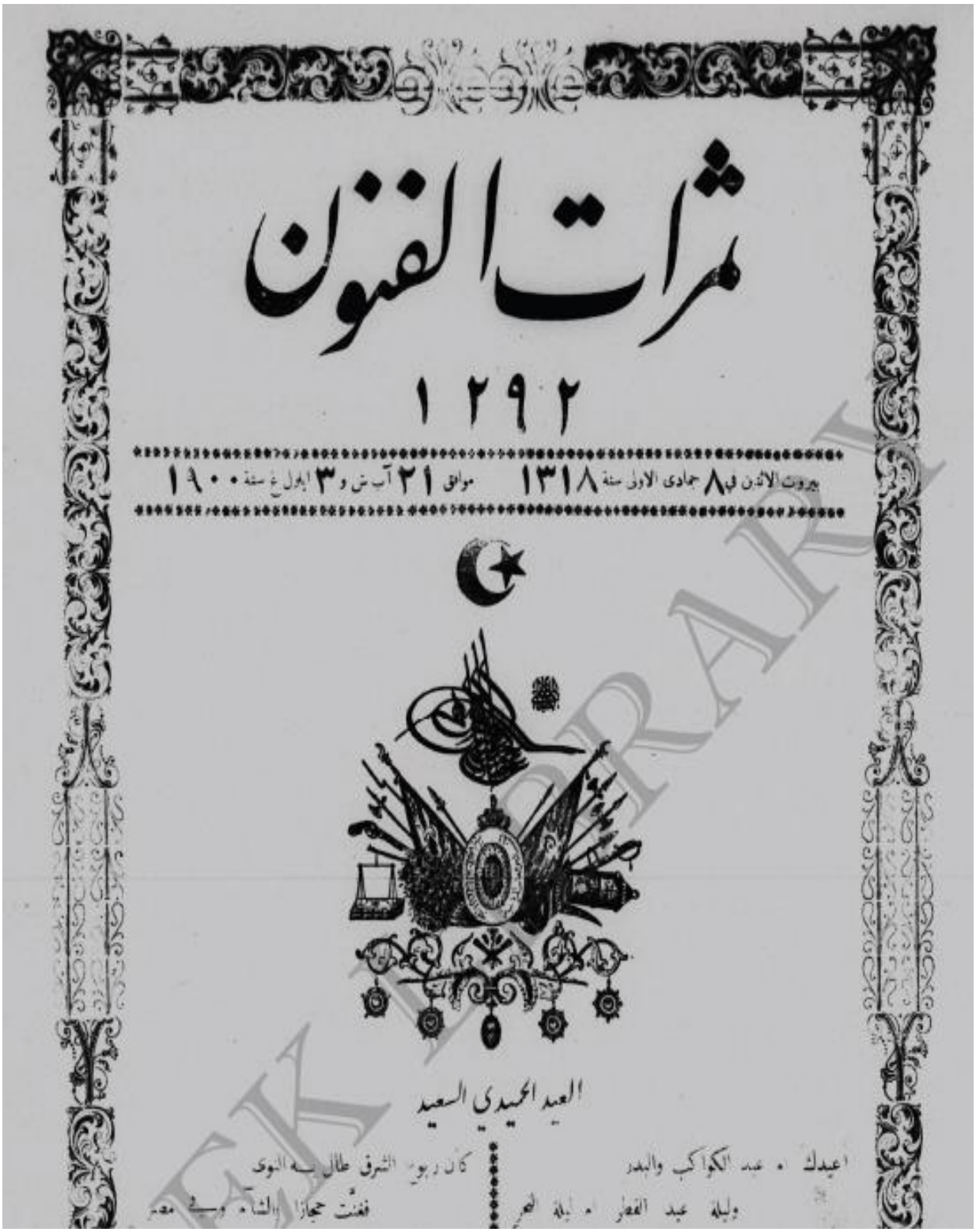

ثمرات الفنون

١٢٩٢

بيروت الاثنين في ٨ جمادى الاولى سنة ١٣١٨ موافق ٢١ آب ش و ٣ ايلول غ سنة ١٩٠٠

العيد الحميدي السعيد

اعيدك ٠ عيد الكواكب والبدر كان ربوع الشرق طال به النوى

وليلة عيد الفطر ٠ ليلة النحر فغنّت حجازا والشآم ومصر

لائحة المصادر والمراجع

-المراجع

–الجبوري، هيثم محيي طالب والجبوري، زينب حسن عبد (٢٠١٥). "أثر حركة الاصلاح العثماني في تطور الحركة الفكرية في الوطن العربي في العهد العثماني". **مجلة جامعة بابل**، المجلد ٢٣، العدد ٣.

– لا مؤلف(كانون الاول، ٢٠١٥). "تاريخ الصحافة تمّ الاسترجاع (١٥– ٩– ٢٠١٩ — ٩:٣٠ صباحًا) من: : www.ministryinfo.gov.lb. وزارة الاعلام.

– دي طرازي، فيليب (١٩١٣). **تاريخ الصحافة العربية**، جزءان، بيروت: المطبعة الأدبية.

– الرفاعي، شمس الدين (٢٠٠٦). **تاريخ الصحافة السورية واللبنانية، من العهد العثماني حتى الاستقلال ١٨٠٠–١٩٤٧**، جزءان، باريس: منشورات أسمار.

– سركيس، سليم (١٨٩٦). **غرائب المكتوبجي**. من: مصر: إصدار جريدة المشير.

– الصباح، هدى(لا ت.) **ثمرات الفنون فهرسة ودراسة**. تمّ الاسترجاع (١٥– ٩– ٢٠١٩ — ١٠ صباحًا) من: http://www.thamaratelfounoun.com/about.htm

–المحامي، محمد فريد بك (١٩٨١). **تاريخ الدولة العلية العثمانية**. بيروت: دار النفائس.

شهرة المؤلّف، اسمه (السنة والشهر). **عنوان المقال** بخطّ عريض للعربيّة، وخطّ مائل للأجنبيّة. تمّ الاسترجاع(السنة والشهر واليوم – الساعة) من: عنوان الصفحة (URL) أو التعريف الرقميّ للمادّة (DOI)، الاسم الرسميّ للموقع فنقطة.

–المصادر

ثمرات الفنون (١٨٧٥). العدد ١.
ثمرات الفنون (١٨٧٥). العدد ٣.
ثمرات الفنون (١٨٧٥). العدد ٨.
ثمرات الفنون (١٨٧٥). العدد ٩.
ثمرات الفنون (١٨٧٥). العدد ١٠.
ثمرات الفنون (١٨٧٥). العدد ١٢.

ثمرات الفنون (١٨٧٥). العدد ١٣.
ثمرات الفنون (١٨٧٥). العدد ١٤.
ثمرات الفنون (١٨٧٥). العدد ١٥.
ثمرات الفنون (١٨٧٥). العدد ١٦.
ثمرات الفنون (١٨٧٥). العدد ١٧.
ثمرات الفنون (١٨٧٥). العدد ١٨.
ثمرات الفنون (١٨٧٥). العدد ٢٠.
ثمرات الفنون (١٨٧٥). العدد ٢١.
ثمرات الفنون (١٨٧٥). العدد ٢٢.
ثمرات الفنون (١٨٧٦). العدد ٦٦.
ثمرات الفنون (١٨٧٥). العدد ٢٠.
ثمرات الفنون (١٨٧٨). العدد ١٤٢.
ثمرات الفنون (١٨٧٨). العدد ١٤٣.
ثمرات الفنون (١٨٧٨). العدد ١٤٥.
ثمرات الفنون (١٨٧٨). العدد ١٤٨.
ثمرات الفنون (١٨٧٨). العدد ١٥٠.
ثمرات الفنون (١٨٧٨). العدد ١٥١.
ثمرات الفنون (١٨٧٨). العدد ١٥٣.
ثمرات الفنون (١٨٧٨). العدد ١٥٧.
ثمرات الفنون (١٨٧٨). العدد ١٥٨.
ثمرات الفنون (١٨٧٨). العدد ١٥٩.
ثمرات الفنون (١٨٧٨). العدد ١٦٣.
ثمرات الفنون (١٨٧٨). العدد ١٦٤.
ثمرات الفنون (١٨٧٨). العدد ١٦٨.
ثمرات الفنون (١٨٧٨). العدد ١٧١.
ثمرات الفنون (١٨٨٠). العدد ٢٨٤.
ثمرات الفنون (١٨٩٠). العدد ٧٦٥.
ثمرات الفنون (١٨٩٠). العدد ٧٧٠.
ثمرات الفنون (١٨٩١). العدد ٨٤٨.
ثمرات الفنون (١٨٩٢). العدد ٨٩٤.

ثمرات الفنون (١٨٩٥). العدد ١٠٣٨.

ثمرات الفنون (١٨٩٦). العدد ١٠٧٠.

ثمرات الفنون (١٨٩٧). العدد ١١٢٧.

ثمرات الفنون (١٨٩٨). العدد ١١٩٦.

ثمرات الفنون (١٨٩٩). العدد ١٢٤٦.

ثمرات الفنون (١٩٠٠). العدد ١٢٩٢.

ثمرات الفنون (١٩٠٣). العدد ١٤٤٦.

ثمرات الفنون (١٩٠٤). العدد ١٤٩٦.

ثمرات الفنون (١٩٠٥). العدد ١٥٢٨.

ثمرات الفنون، الأعداد ١٠٦–١٠٧–١٠٨–١١٢–١١٤–١١٥–١١٦–١١٨–١٢٧.

ثمرات الفنون، الأعداد ٧–١٠–١٢–١٣–١٧–١٩–٢٠–٢٣–٢٦–٢٧–٢٨–٢٩–٣٠–٣٢–٣٣.